الأخبار

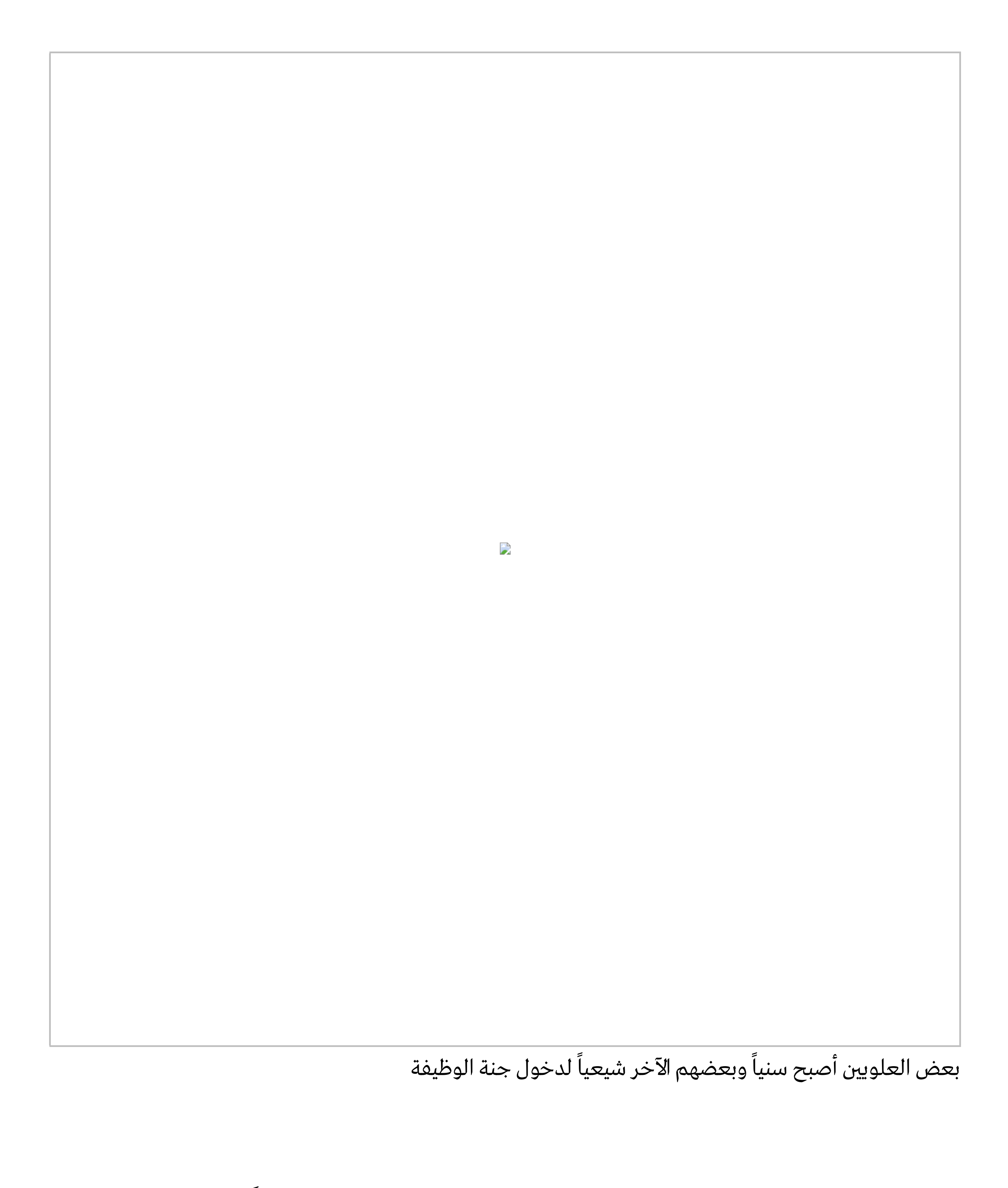
في «مجاهل» العلويين... محنة أقلية في بلاد الطوائف

| الجمعة 28 تشرين الأول

سياسة | محمد نزال 2011

هنا بيئة لا تشبه سواها في لبنان. هنا، قد يتبادر إلى ذهنك أنك دخلت الأراضي السورية خطأً. صور الرئيس بشار الأسد تملأ فضاء المكان: بالبزّة العسكرية، مدنياً، بالنظّارات الشمسية... هنا، يسكن القسم الأكبر من أبناء الطائفة الإسلامية العلوية في لبنان. هنا، تقرأ في العيون مزيجاً من الحرمان والقلق والصلابة، وتسمع عن ظلم التاريخ وتأهب الحاضر وترقّب المستقبل. هنا، نموذج لمحنة الأقلية في بلاد الطوائف... أهلاً بك في جبل محسن.لا أرقام دقيقة عن عدد العلويين في بلاد الأرز. أكثرهم تفاؤلاً يقول إنهم يفوقون ال 120 ألف نسمة، وأكثرهم تشاؤماً يؤكد أن العدد يربو على 70 ألفاً. يتركز أكثرهم، بنسبة تصل الى 60 في المئة، في منطقة جبل محسن، التابعة إدارياً لمدينة طرابلس، وثلثهم تقريباً في منطقة عكّار، ويتوزّع الباقون، بأعداد قليلة، على مناطق مختلفة. قبل 75 عاماً، اعترفت الجمهورية اللبنانية بالعلويين كأحد المذاهب الإسلامية، إلى جانب السنّة والشيعة والدروز. لكن هذا الإعتراف (المدوّن في القانون 60/ ل.ر) بقي حبراً على ورق. فعلى عكس المذاهب الأخرى، لم يتمثّل العلويون في أي من الحكومات منذ الإستقلال حتى اليوم. لا وزير علوياً في تاريخ الجمهورية اللبنانية. بل يمكن القول، بكل راحة ضمير، أن العلويين لم «يذوقوا» يوماً طعم «الكعكة» اللبنانية: إذ ما من محافظ علوي، ولا رئيس بلدية ولا قاض ولا كاتب عدل ولا ضابط رفيع! أما التمثيل النيابي، فلم يحصلوا عليه إلا في مجالس ما بعد الطائف (1992). مذ ذاك أُعطوا مقعدان، عن طرابلس وعكّار. ولكن، عملياً، لم تكن لهم «جميلة» في إيصال نوابهم بأصواتهم، إذ أن هؤلاء تتكفّل بهم، في العادة، «المحادل» و«البوسطات» وغيرها من «وسائل النقل» الانتخابية الجائرة. اليوم، يطل أبناء هذه الطائفة إلى الضوء، لا من بوابة السياسة اللبنانية الضيقة، بل من خلال الأحداث الدائرة في سوريا، التي اتخذت، أو جعلها البعض تتخذ، شكل صراع طائفي بين السنة والعلويين. أين علويو لبنان مما يحصل في سوريا، وإلى أي مدى يمكن أن يؤثّر عليهم الوضع هناك؟ ما هو مستوى ارتباطهم بالنظام السوري، وكيف يوفقون بين الحلف والإنتماء؟ أين هم من معزوفة «العيش المشترك»،

وهم الذين يحيط بـ«جبلهم»، من كل الجهات، «إخوانهم» الطرابلسيون الذين خرجت وتخرج من بينهم تظاهرات تطالب بإسقاط النظام السوري «العلوي»؟ في الرحلة الى الجبل، أو بعل محسن كما كان يسمى قديماً، لا سبيل الى الوصول (إذا استثنينا القفز بالباراشوت)، إلا عبر عاصمة الشمال. في طرابلس، يدوخ الزائر من كثرة صور زعماء ورؤساء حكومات ونواب وقادة أجهزة أمنية. تبدو معركة انتخابات 2013 مفتوحة منذ الآن. شارع صغير أطلق عليه، للمفارقة، اسم «شارع سوريا»، هو الحد الفاصل بين سنة باب التبانة وعلويي الجبل. لا قاسم مشتركاً بين هنا وهناك، اليوم، سوى البؤس والفقر، وغياب الدولة عبر أوضح النماذج. ما أن تجتاز الشارع حتى تنتصب أمامك، فجأة، صورة عملاقة تجمع علي عيد وابنه رفعت مع الرئيس السوري بشّار الأسد. «زعيم الجبل»، رفعت، هو المسؤول السياسي في الحزب العربي الديمقراطي، ونجل «الأستاذ» علي. والأخير بالنسبة الى «أهل الجبل» هو عضد الطائفة وسندها وجامع كلمتها، وهو، بالتالي، وبقوة الواقع، المرجع السياسي للأكثرية الساحقة من علويي لبنان (بحسب أرقام الإنتخابات النيابية الأخيرة). يقع منزل آل عيد على الطريق العامة قرب مستشفى «الزهراء» (الذي يتمركز فيه الجيش). يرفع الحارس العارضة الحديدية مبتسماً. لندلف إلى باحة واسعة، حيث تركن سيارات الزوار و«قاصدي الخدمات». داخل مكتب رفعت عيد، أكثر ما يجذب نظرك سيف خشبي كبير مدموغ بعبارة «لا فتى إلا عليّ ولا سيف إلا ذوالفقار». إلى جانبه، صورة للرئيس السوري بشّار الأسد وأخرى لوالده الرئيس الراحل حافظ. على يسار المكتب، لوحة كبيرة للعلم اللبناني. ومكتبة متوسطة الحجم، تتوسطها موسوعتان، عن حزب الله وعن السيد موسى الصدر.

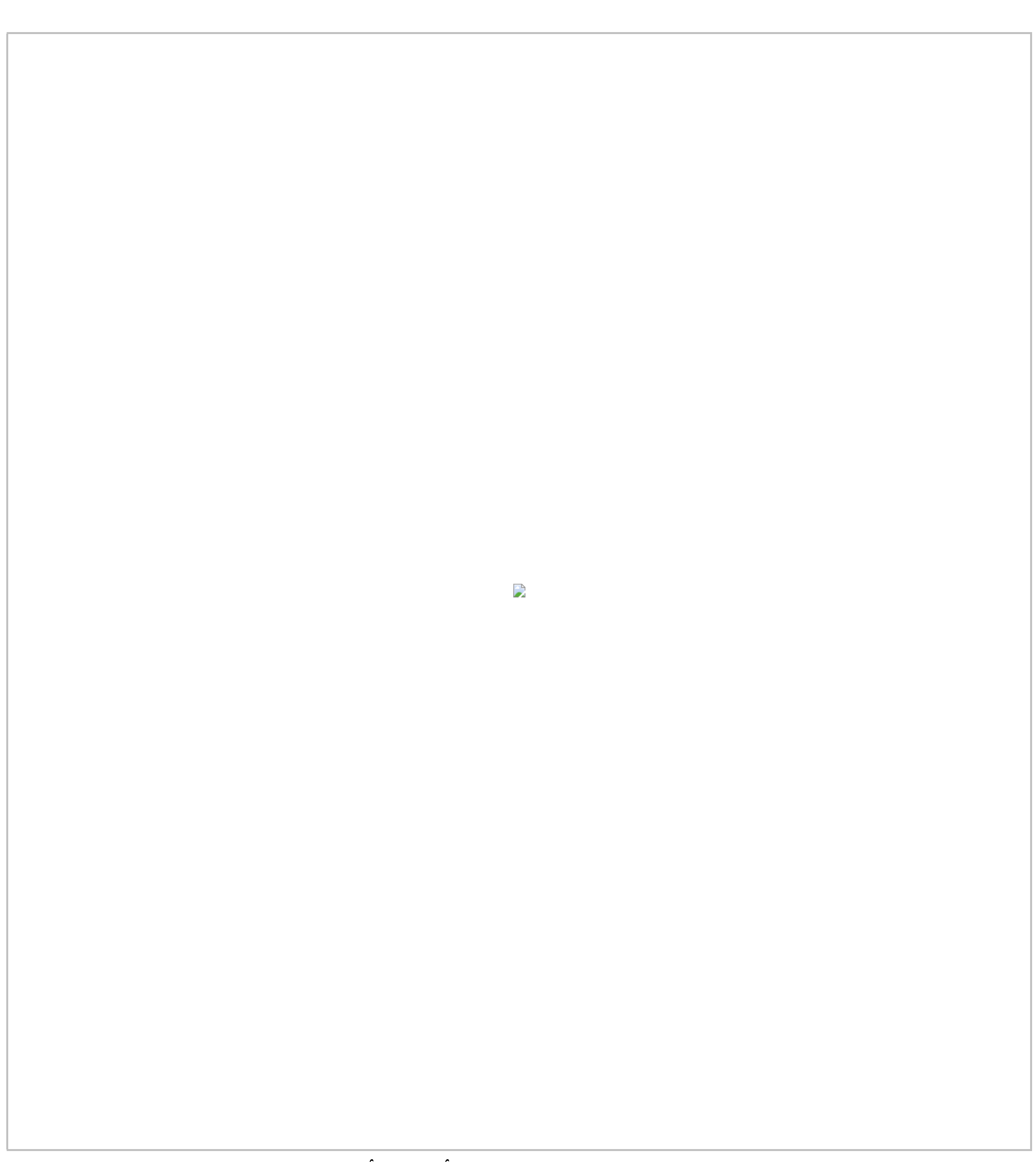


بعض العلويين أصبح سنياً وبعضهم الآخر شيعياً لدخول جنة الوظيفة

يحلو لعيد أن يروي «الحكاية» من بداياتها. مذ كانت الجمهورية لم يكن مسموحاً لأبناء هذه الطائفة بأي وظيفة رسمية. استثناء «تاريخي» واحد خرق هذه القاعدة حصل عندما وافق رئيس احدى البلديات، قبل نحو خمسة عقود، على توظيف شباب علويين في رعاية كلاب الحراسة! كان العلوي «يطير فرحاً إذا تمكن من التقاط صورة تذكارية تجمعه مع شرطي بلدي». لذلك كان يذهب طائعاً إلى دوائر النفوس كي يبدّل مذهبه على الورق «للحصول على وظيفة». هكذا صار بعض العلويين سنياً وبعضهم الآخر شيعياً، وهذا، ربما، ما يفسّر اختلاف التقديرات حول أعدادهم. في مطلع ستينات القرن الماضي، سافر علي عيد إلى

الولايات المتحدة للدراسة قبل أن يعود إلى لبنان لإكمال دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت. بعد تخرجه، حاول عبثاً أن يجد وظيفة، والسبب أن توظيف العلوي لم يكن يُحسب على أحد من الزعماء، «لا أحد في هذا البلد يعطي بلا حسابات سياسية». قصد عيد الزعيم المسيحي يومذاك العميد ريمون إدّه، مطالباً بإنصاف الطائفة العلوية في الوظائف. قال له إدّه: «هذا هو لبنان. يمكنك، ببساطة، مغادرته. ولكن من أراد أن يبقى فعليه أن يدخل في لعبة الطوائف، وبالتالي عليك أن تؤسس لحراك تجمع به شمل أبناء طائفتك لتصبح قادراً على الضغط وتحصيل الحقوق». لمعت الفكرة في ذهن عيد. بدأ من الرياضة، النشاط الأكثر جذباً للشباب. أسس فريقاً لكرة القدم. هكذا، راح الحراك يتسّع تحت عنوان «حركة الشباب العلوي»، إلى جانب جهود عدد من الناشطين وبعض الشخصيات البارزة من الطائفة، ومنهم آصف ناصر، الذي أصبح بعد الطائف سفيراً للبنان في كازاخستان. إلى هذا الحد، لم تكن لآل عيد علاقة بالنظام السوري في دمشق. ولكن، وبحسب رفعت، شنّ «الفلسطينيون بقيادة ياسر عرفات وبعض الحركات الإسلامية» حملة على العلويين في شمال لبنان في 6/6/1976، «على خلفية خلافاتهم مع النظام السوري، فهُجّرنا إلى سوريا». هناك تعرّف علي عيد على الرئيس حافظ الأسد، الذي «قدّم لنا كل الدعم، فأصبح لدينا سلاح وتدربنا على استخدامه، وعند دخول القوات السورية إلى لبنان عدنا معها إلى مناطقنا، وإلى البلد الذي ولدنا فيه، إلى حيث ننتمي، ولا يمكن أحداً أن يزايد علينا في وطنيتنا. نحن لنا على الجميع، ولا أحد في لبنان، على الإطلاق، له شيء علينا». رغم ذلك، «لم يعمل السوريون على تمكين العلويين اللبنانيين من أي نفوذ أو سلطة». بعد الطائف، وصل كل من أحمد حبوس وعبد الرحمن عبد الرحمن إلى المجلس النيابي، كأول نائبين من الطائفة العلوية في تاريخ لبنان. هكذا، صار للطائفة نائبان وسفير وعدد من موظفي الفئة الأولى أقل مما يفترض بحسب النسبة المئوية للتمثيل المعمول بها لدى سائر الطوائف. بعد انتهاء الحرب، شمل قرار جمع السلاح وحلّ الميليشيات أبناء الطائفة، فاستوعب نحو 1500 منهم في الأجهزة الأمنية الرسمية. اليوم، «لا يوجد سوى علوي واحد في الأمن العام، في مقابل عدم وجود أحد في استخبارات الجيش أو في الجمارك. لا ضبّاط علويين من رتب رفيعة. كما بقينا كل تلك السنين بلا مجلس ينظم شؤون الطائفة». يبدي عيد عتباً كبيراً على من يفترض أنهم حلفاء، وتحديداً من قوى 8 آذار، الذين «لم يقفوا معنا كما يجب. في السياسة، نشعر اليوم بأن الحلفاء يريدون أن يأكلونا فيما الأخصام يريدون قتلنا». عتب عيد لا يوفّر رئيس الحكومة نجيب ميقاتي، الذي «فاز في الإنتخابات النيابة في الشمال على ظهورنا، فهو، والجميع، يعلمون أننا نحن من ثبّت الوضع الأمني في الشمال، وأنه لولا جهود بعض القوى، ونحن في طليعتها، لكان الشمال قد أصبح إمارة إسلامية». لدى سؤاله عن الوضع في سوريا. تتغير نبرة عيد، وتصبح أكثر حدّة: «لا يزايدن علينا أحد. نحن لبنانيون أكثر من كثير من المتشدقين بالإنتماء. قلعة طرابلس من بناها؟ أليسوا بني عمّار الذين كانوا على المذهب

الإسلامي العلوي؟». أما العلاقة المميزة مع سوريا التي «نعتز بها»، فهي كعلاقة الشيعة بإيران، والسنة بالسعودية، والموارنة بفرنسا، وهكذا... «ونحن أولى بالعلاقة الاستراتيجية مع سوريا المتصلة بنا جغرافياً، حيث لدى كثيرين منّا علاقات قربى هناك. ما يربطنا بسوريا هو التاريخ والجغرافيا، العمق الاستراتيجي والقضية الواحدة والنضال المشترك. صحيح أن الرئيس السوري من الطائفة العلوية، لكنه لم يكن يوماً طائفياً، ونحن أيضاً لسنا طائفيين».



رفعت عيد: لم يعمل السوريون على تمكين العلويين اللبنانيين من أي نفوذ أو سلطة

وعن التوقعات لما يمكن أن ينتج عن الأحداث التي تشهدها سوريا، يجيب عيد: «قد، لا سمح الله، تحصل مشاكل كثيرة في سوريا. ولكن الأسد، بكل ما يمثل، لن يسقط. وأقول لبعض المجانين إن اللعب مع سوريا في الموضوع الطائفي هو لعب بالنار، وفي حال أصروا على ذلك، فليعلموا أن الموت سيكون جماعياً، وسيكون هناك كثير من الدم، ولن تهدأ الأرض ولن يستقر لأحد عليها قرار». وعن وضع العلويين في لبنان في ظل هذه الظروف، يقول جازماً: «نحن أقوياء جداً. لا نعتدي على أحد، ولكن إذا اعتدى علينا أحد فإننا نعرف كيف ندافع عن أنفسنا. نحن نراعي الوضع الأمني، والمسؤولون في لبنان، جميعهم من دون استثناء، يعرفون ذلك. نستطيع أن ننزل إلى الشوارع كل يوم ونطالب بحقوقنا بطرق سلمية أيضاً، ولكننا لا نريد تأزيم الأمور». يعود بالذاكرة إلى أكثر من 3 سنوات خلت، إلى أحداث 7 أيار، يوم «اعتدى علينا تيار المستقبل هنا، ومن لف لفه، بعدما ظنوا أنهم يستطيعون تعويض ما حصل معهم في بيروت. يومها تصدينا وعلموا أننا لسنا ضعفاء، ولسنا بالخاصرة الرخوة. وصلتهم الرسالة. قلت لهم يومها نحن هنا حوالي 50 ألف شخص، مستعدون لأن يموت منّا 25 ألفاً، بل كلنا، ولكن لا نحني رؤوسنا أو نُذلّ لأحد». ماذا عن السلاح؟ يجيب عيد مباشرة: «نعم نملك السلاح، وهو عندنا أهم من الخبز، وإلا فما هو ضماني؟ لا أحد يضمن أمننا. لنا ثقة بالجيش، لكنه غير قادر على تأمين الحماية في ظروف معينة. هذا الجيش الذي خوّنه النائب الشمالي خالد ضاهر وفريقه السياسي». لكنه ينبّه الى ضرورة «عدم فهمنا خطأً. لا مشكلة لدينا مع إخواننا السنة أبداً. المسألة ليست طائفية. مشكلتنا مع الأجهزة الإستخباراتية التابعة للأطراف المناوئة لنا، مثل فرع المعلومات. نحن وأبناء طرابلس، من السنة، أهل وأكثر، تربينا مع بعضنا ودرسنا وأكلنا وشربنا مع بعضنا، ولن نقبل أن يكون بيننا صراع من منطلق طائفي، رغم كل ما حل بنا قديماً وحديثاً». لسنا طائفيين... ربما تكون هذه العبارة، التقليدية جداً في لبنان، إحدى أكثر العبارات التي تُسمع في جبل محسن. يرددها الصيدلي، بائع الخضر، الاسكافي وصاحب محل النراجيل. كأنها نشيد وطني. يمكن، بسهولة، ملاحظة أن الناس في هذه المنطقة مطبوعون بشخصية تمتزج فيها الطيبة بالعنفوان. يضع أحمد الحذاء الذي يصلحه من يده، ويقول ممازحاً: «هذا الرينجر لأحد المقاتلين الذين يتحضرون للمعركة المقبلة». تغيب البسمة عن وجهه، ويقول: «كلنا أخوة. لم نكن نعرف الفرق بين علوي وسني. من أين أتتنا هذه الطائفية بيننا وبين التبانة؟ ولكن تذكر، لن نقبل أن يعتدى علينا ونبقى قاعدين». في جبل محسن لا يلاحظ وجود تعصب ديني، لكن ثمة ما يمكن عدّه «قلق أقليات». يدركون هناك أن أبناء الطائفة السنية، الذين يحوطونهم من كل الجوانب، هم مثلهم فقراء ويعانون

غياب الدولة، وتحديداً في منطقة باب التبانة. في جبل محسن، يمكن فهم ذلك التحوّل النفسي للجماعات، الذي يصبح معه شخص لا عهد له بالطائفية، «مضطراً» لركوب هذه «اللعنة» خوفاً من الغرق. «دُفعنا إليها، فذهبنا بأقدام من حديد»... يقول إبراهيم، صاحب المكتبة المتواضعة.

علوش النموذج

قبل أن تستحكم «الفتن» والخلافات بين جبل محسن والتبانة، كان الحس الطائفي، بحسب بعض الكهول في المنطقتين، شبه معدوم، بل غير موجود أصلاً. دليلهم إلى ذلك الإختلاط والعلاقات المميزة، والمصاهرات التي كانت تحصل بين أبناء الطائفتين السنية والعلوية. ويُعد النائب السابق عن تيار المستقبل مصطفى علوش من أبرز تلك النماذج، فهو مولود من أب سني وأم علوية. علوش يرى اليوم في منطقة جبل محسن، حيث الأغلبية العلوية، ما يشبه «تورا بورا» في أفغانستان. يحمّل سبب ما وصلت إليه تلك المنطقة إلى «النظام السوري وآل عيد». هو غير متخوّف على الوضع الأمني في طرابلس، إلا إذا أرادت سوريا «تحريك عيد من خلال إحداث خلل أمني في المدينة». علوش لا يحب السلاح. ولطالما نفى أن يكون لفريقه السياسي، ومن يدور في فلكه، أي علاقة بالسلاح، ولكن على القوى الأمنية «نزع هذا السلاح إذا كان موجوداً فعلاً، وهو حتماً موجود لدى فريق 8 آذار في طرابلس». يقصد بذلك آل عيد في جبل محسن. واللافت أن من يجول هذه الأيام في الجبل، يدهش لحجم النقمة على علوش، ولا ينافسه في ذلك سوى شخص واحد... النائب خالد ضاهر.

حكاية الإنيرغا

يندر إيجاد خبر، خلال السنوات الخمس الأخيرة، عن جبل محسن وباب التبانة، إلا وتكون الإنيرغا ثالثهما. تفاقم استخدام هذه القنابل الطائرة، المشظية للأفراد بأغلبها، حتى صار إسمها قريناً للمنطقتين. خلال تلك السنوات، سقط كثير من الجرحى بسبب هذه القنابل، وكادت تحصل جراء بعضها مجازر داخل الأحياء السكنية المكتظة. اللافت أن الذين يطلقون هذه القنابل كانوا، وما زالوا، مجهولين، وذلك رغم وجود قوة للجيش عند مدخل جبل محسن، وأخرى في باب التبانة، فضلاً عن الحركة النشطة لأجهزة الإستخبارات الرسمية بين المنطقتين. يأتي أشخاص يحملون اسلحة مختلفة، فيضعون الإنيرغا في فوهة الرشاشات، ثم يطلقونها بشكل قوسي لتستقر في المنطقة الأخرى. في فترة معينة، أصبحت «حرارة محور جبل محسن ـ التبانة» تؤشر لدى المتابعين إلى طبيعة الحالة الأمنية في لبنان. عدت تلك الساحة «صندوق بريد» بين الأطراف المختلفة سياسياً، وحتى بين أجهزة الإستخبارات الأجنبية. ذات مرة، أشار مختار جبل محسن، الذي يعدّ أيضاً مختار التبانة، عبد اللطيف صالح، الى «وقوف جهاز استخباراتي عربي وراء إطلاق تلك القذائف، بهدف زعزعة الأمن والإستقرار، وهذه المعلومات باتت في عهدة إستخبارات الجيش اللبناني». يُذكر أن الإنيرغا تستخدم غالباً في أيام السلم، ولكن عند نشوب المعارك، يصبح الكلام على أسلحة رشاشة من مختلف الأنواع والأحجام، إضافة إلى القذائف الصاروخية من نوع ار بي جي.

(غداً الجزء الثاني)





الأخبار

العلويّون في لبنان: محنة المواطن في جمهوريّة الطوائف

رأي | محمد آصف ناصر | الخميس 10 تموز 2008

محمد آصف ناصر

ثمانية وثمانون عاماً قد انقضت، ولا تزال الهوية في لبنان تترنّح ما بين الطائفية والمذهبية، وكلٌّ مشكوك في انتمائه، والوطن يدور في دوامة العتمة.

عودٌ على بدء، أجل ولكي نحيط بما أشعل شارع سوريا في الأيام الماضية، علينا أن نعود إلى زمن الكاسورة في التبّانة، علينا أن نفهم تشكُّل المجتمع الطرابلسي اللبناني في العشرينات، وكيف أطلّ القرن العشرون على طرابلس. علينا أن نسأل، هل كانت طرابلس تعيش عتمة اللون الواحد في القرن التاسع عشر، أم كانت تزهو بالألوان المختلفة؟ وهل كانت هذه المدينة . القرية مدينة في القرن التاسع عشر أم قرية؟

إنّ النّاظر اليوم إلى مدينة طرابلس الفيحاء وإلى بنيتها الاجتماعية والاقتصادية يرى فيها نموذجاً فريداً . هجيناً إلى حدٍّ ما . يجمع ما بين ثقافتي المدينة والقرية. غير أنّ العودة بالزمن إلى ذكريات الجيل القديم، جيل ما قبل الانتداب والنكبة، تكشف عن صورة أخرى، صورة إذا ما أخضعت لقانون النسبية، فستُظهر طرابلس مدينة تفوق بمجدها الغابر مجد بيروت الحاضر، غير أنّ كلمة غابر لا تسمن ولا تغني من جوع.

■ طرابلس ما قبل 1920

قبل مؤتمر سان ريمو، لم تكن طرابلس. كما هو معروف. تنتمي إلى لبنان، وإنما كانت تمثِّل المدينة الأهم في الساحل السوري. وعلى هذه المدينة، دارت رُحى المعارك لتأكيد السيطرة على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، حرب انخرط فيها العلويون مباشرةً منذ العصر العباسي، حين كانت دولة الحمدانيين في شمال سوريا دولة علوية بامتياز، ومن ثم في إمارة بني عمار في طرابلس. آخر دولة حكمها العلويون في التاريخ. التي كانت المعقل الأصعب على الصليبيين الذين دمروها بعد سنين من المعارك من دون أن يهبّ أحد للدفاع عنها، إلى معارك التحرير مع الزنكي ونجله نور الدين اللذين إذا ما راجعت أسماء ضباط جيوشهما، فستجد بينهم العدد الكبير من العلويّين الذين آمنوا بالفعل المقاوم، إلى فترة الحكم الأيوبي ومن ثم زمن بيبرس حين كان أبناء هذه الطائفة ينحازون إلى مقاومة المحتل الغريب حيثما كان وكائناً من كان، بالرغم من الفتن والقلاقل التي أثارها النفعيون والوصوليون في تلك الأزمنة.
وكذلك كانت الحال بعد انتقال الحكم إلى العثمانيين، ولربما اختلفت درجة الأمان والاستقرار بحسب المزاج الحاكم في الآستانة، غير أنه ثابت في تاريخ المدينة أنّ القرن التاسع عشر عرف تنوّعاً في مذاهبها الدينية، وكان للعلويّين فيها وجود فاعل وذو أثر، كما كان لهم فيها مخاتير نذكر منهم علي خليل وبعده شخص آخر من آل المندراوي؛ وقد عرفت التبانة في تلك الحقبة بروزاً لعدد من التجار العلويّين من عائلات ميكائيل وخليل وعبد الرحمن وإرسلان، وكانت الكاسورة التي يملكها حسن علي خليل من أهم المراكز التجارية في المدينة.

■ في الفصل و الوصل

جلب مؤتمر سان ريمو بالذات، تغيّراً جذرياً على طرابلس، وخاصة بعد تأكيد وجود دولة لبنان الكبير. يومها لم يكن المجتمع الطرابلسي ليقبل فصله عن سوريا، ولم يقبل يومها أيضاً الانتداب ولا أن تكون مدينته عاصمة لبنان.
وتماماً كما النسيج الذي ينتمون إليه، لم يفهم العلويّون التناسق بين مبادئ ويلسون وقمع إرادات الشعوب. لم يدرك العرب يومها ازدواجية المعايير ولا النظرة الدونية التي كانت تضمرها الدبلوماسية الغربية لمجتمعاتهم. وكان العلويّون تماماً كسائر الطرابلسيّين يرفضون التقسيم وفصل طرابلس عن سوريا وإنشاء دويلة تقضم الساحل السوري، تحقيقاً للمشروع القديم القاضي بالسيطرة التامة على البحر الأبيض المتوسط عبر عزل الداخل العربي عن الساحل العربي وإخضاع هذا الساحل إلى أقليات

دينية وعرقية بحسب مفهوم نظرية المجموعات الصغرى في الدبلوماسية الغربية.

عبّرت المرجعيات الروحية للعلويّين مباشرة عن الرفض لبرنامج التجزئة البنيوية، وكان للشيخ صالح العلي كلمته الشهيرة نحن لسنا أقليات بل أجليات، وكان أن هبّت المرجعيات الروحية العلوية لمقاومة الاستعمار عسكرياً بقيادة الشيخ المجاهد صالح العلي وسياسياً بإدارة العلامة المرجع الشيخ سليمان أحمد، وانقسم العلويون يومها إلى قسمين:

. أقليّة بقيادة جابر أفندي العباس وبعض العائلات الإقطاعية من الصف الثاني، دعمت مشروع الدويلة العلوية وتقسيم سوريا، وأُسندت إليها مراكز رئاسية وسياسية.

. أكثرية اتّبعت المرجعيات الروحية والقيادات الزمنية من زعماء العشائر والوجهاء والمثقفين الذين رفضوا التقسيم ورفضوا إنشاء دولة العلويين. ونورد هنا وثيقة تاريخية وقّعها زعماء العلويين في الساحل السوري موجهة إلى المندوب السامي الفرنسي وقد جاء فيها:

«فخامة المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان(...) بصفتنا الكتلة الممثلة لأكثرية سكان منطقة اللاذقية الساحقة من علويين وسنيين ومسيحيين، و المكلّفة من جانب هذه الأكثرية للتشرف بمقابلة فخامتكم والإعراب عن أماني الشعب الحقيقية الملتف حول فكرة استقلال سوريا و سيادتها جئنا نطلب من فخامتكم إكمالاً لهذا الاستقلال والسيادة المنشودين تحقيق الوحدة السورية بإدماج منطقة اللاذقية بها مع مراعاة فكرة لامركزية إدارية، مستنكرين انفصالنا عن سوريا للأضرار التي ألحقها هذا النظام بالشعب السوري عامة وبصورة خاصة بالشعب القاطن منطقة اللاذقية من جميع الوجوه: السياسية والاجتماعية والاقتصادية و الإدارية والدينية والثقافية، واضعين ثقتنا بالكتلة الوطنية.

وإننا بصفتنا نمثل الأغلبية الساحقة، نستنكر ادعاء فريق لا يمثّل سوى أقلية ضئيلة أتى ليعرب، مَسوقاً برغبة رجال حكومة اللاذقية، عن تمسّكه بالوضع الحاضر، تبريراً لسياسة رجال الحكومة. ونرجو من فخامتكم أن ترفعوا صوتنا هذا للجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي ولعصبة الأمم.

التواقيع: شيخ ورئيس النميلاتية: علي كامل محمد.

شيخ و رئيس الحيدرية: علي ناصر. رئيس عشائر الخياطين: عباس منير. رئيس الكلبية: سليمان الأسد. رئيس الكلبية الشمالية: محمد عزيز اسماعيل. زعيم الحدادين: لؤي شهاب. باسم الموارنة. رئيس عشيرة الدنادشة (الممثل السني): رباح دندش. نائب اللاذقية: أحمد ديب. نائب طرطوس (...)».

وقد توصّل العلويون، بالتكاتف والتنسيق مع سائر مكوّنات المجتمع والطوائف في سوريا، إلى إزالة الدويلات وإعادة الوحدة إلى الوطن السوري.

أما في طرابلس، فقد ثارت ثائرة العلويين تأييداً للثورة، وكان السنّة الطرابلسيون يرفدون الثورة بقيادة الزعيم الوطني المفتي عبد الحميد كرامي والشيخ الطيب الرافعي والدكتور كمال زودة، بالتنسيق مع

الشيخ صالح العلي عبر ضابط الارتباط آنذاك محمّد حسن ديب ناصر.

■ العلويّون والمجتمع السياسي اللبناني

أدّى الانقسام المشار إليه أعلاه، إلى انفصام في المجتمع العلوي الطرابلسي بين القاعدة العلوية وزعاماتها العشائرية، إذ كان معظم العلويين يدينون بالولاء العشائري لآل العباس ممثلين بزعيمهم جابر أفندي العباس الذي أُسند إليه مركز رئاسة الدويلة العلوية، في الوقت الذي انحاز فيه معظم الزعماء الآخرين من قيادات الصف الأول في تلك الأيام كآل إسماعيل وآل خيربك وآل الأسد وآل الجديد إلى المقاومة.
هذا الانفصام أدى إلى فقدان علويّي لبنان الارتباط بالمرجعية الزمنية، وآثروا الانضواء تحت زعامة آل كرامي في المدينة نظراً لدعم هؤلاء للمقاومة.

■ طائف من دون ممثّلين

بالتوازي مع ما تقدّم، كانت العائلات الروحية في لبنان تتكوّن في سياق زعامات زمنية، وكانت كل طائفة تقدّم زعامات الصف الأول في ذلك الزمن لتولي المراكز والتفاوض على الحصص، فكانت تلك الزعامات التقليدية تأخذ أدوارها تدريجياً في النظام المراد له أن يكون فيما بعد النظام الذي عرفه لبنان في الخمسينات والستينات والذي نعرفه اليوم، أي جمهورية الطوائف.
أدرك العلويون هذه الحقيقة في تلك المرحلة متأخرين، ولم يبدأ هذا الوعي بالتكوّن إلا في عهد الرئيس إميل إده حين طالب البعض منهم بإسناد مقعد الأقليات إليهم لكونهم كانوا أكثر من البروتستانت عدداً، من دون أي جدوى خاصة وأن المرجعيات الروحية في الطائفة رفضت منحهم أية فتوى يمكن أن تثير التفرقة في المجتمع الإسلامي حتى لو على سبيل توضيح الاختلاف الفقهي والمذهبي، بل كان جواب المشايخ بالإجماع أن المسلمين جميعهم عائلة واحدة ولا اختلاف بينهم والتفاضل بينهم يكون بالتقوى.
كان نتيجة لذلك أن كان العلويون الطائفة الوحيدة في لبنان من دون تمثيل نيابي وبالتالي من دون حقوق مدنية كاملة حتى ذهب البعض إلى الزعم أن الطائفة العلوية هي طائفة غير معترف بها في الجمهورية اللبنانية، وهذا ما تنفيه صراحة النصوص ولا سيما الجدول الملحق بالقانون 60 ل.ر. الصادر عام 1936، حين كانت الطوائف فيه سبع عشرة طائفة، وكانت المذاهب الإسلامية المعترف بها أربعة: السنة، الشيعة الدروز والعلويين.

■ علويّو طرابلس 1975

أسوة بالمجتمع الطرابلسي كان معظم العلويين من الطبقة الوسطى والفقيرة، باستثناء بعض أثرياء التجار من العائلات المعروفة. كما عرف معظمهم إنجازات مهمة في ميادين مختلفة، فكان وكيل شركة الفورد في الشمال محمود علي خليل. أما آل حبوس فكان لهم العديد من المصانع ودور السينما، كذلك كان محمد حسن ديب ناصر صناعياً بارعاً وقد أسس نقابة أرباب العمل والمهن الحرة في طرابلس مع جلال السكّري وياسر العرجه. أما شقيقه أحمد فكان من كبار التجار في باب التبانة، وكذلك كانت حال آل ميكائيل وآل خليل وباقي العائلات. أمّا أحمد حسن خليل فقد توصّل في الخمسينيات لأن يتبوّأ أوّل مركز يسند لمواطن طرابلسي في شركة نفط العراق IPC.

أما على صعيد الاجتماعي، فكانت توجهاتهم علمانية فكنت ترى في إخراج القيد العائلي العلوي وحدة وطنية من كل الطوائف والمذاهب إن لجهة المصاهرة أو لجهة التزاوج، فكنت ترى الأم السنية للابن العلوي والعمة الشيعية والخالة الدرزية أو المارونية أو الأرثوذكسية، فلم يعرف العلويون التعصب كما لم يعرف ذلك الطرابلسيون بأسرهم مسلمين كانوا أو مسيحيين، وكنت تجد الشباب العلوي منخرطاً في الأحزاب العلمانية. والجدير بالذكر أنه عند انقسام حزب البعث العربي الاشتراكي إلى فرع دمشق وفرع بغداد، كانت أكثرية العلويين من المحازبين من الفريق الذي عرف لاحقاً بالبعث العراقي.

غير أن هذه العلمانية المفرطة كانت وبالاً على الطائفة العلوية وأبنائها في جمهورية الطوائف، فحيث لا يمكن أن تنال حقّاً في الدولة إلا عبر انتمائك إلى قبيلتك، هذا الأمر حدا بالكثيرين من أبناء الطائفة إلى تغيير مذاهبهم إلى سنّة وشيعة ممّا أدى إلى تناقص دراماتيكي في أعداد أبناء الطائفة المسجّلين في سجلات النفوس.

وبالرغم من ذلك، توصّل العديد من العلويّين إلى التوظّف في إدارات الدولة في تلك الأزمنة بكفاءاتهم وعلاقاتهم الشخصية (المهندس أحمد درويش كان رئيس دائرة المساحة).

■ العلويّون وقانون الستّين

واستمرّ العلويّون بعيدين عن العمل الطائفي حتى أقرّ القانون الانتخابي لعام 1960 الشهير، حيث ارتفع عدد أعضاء المجلس النيابي إلى 99 عضواً وكان الرئيس شهاب قد اقترح أن يكون المقعد التاسع والتسعون من نصيب العلويين، غير أنّ اللعبة السياسية في لبنان حالت دون ذلك، ممّا أثار يقظة في صفوف الشباب ودعاهم إلى العمل على ترتيب البيت الداخلي للطائفة بعدما كان الكيانان الوحيدان للطائفة في لبنان هما

الرابطة الخيرية الإسلامية العلوية ومسجد الإمام علي أبن أبي طالب.
تأسّست جمعيات كثيرة منها اتحاد الشباب العلوي، ونادي الفتوة، حركة الشبيبة العلوية (1969)، حركة الشباب العلوي (1972)، حركة النهضة العلوية (1972)، وكانت هذه الجمعيات والحركات تقوم بأنشطة اجتماعية وثقافية وسياسية إلى حدّ ما.
غير أن الحرب اللبنانية أسقطت باقي المشاريع وأبقت على المشروع السياسي الذي تمثل بحركة الشباب العلوي برئاسة النائب السابق علي عيد.

■ العلويون والحرب

كان اتساع رقعة الحرب واستعارها يضعان أبناء طرابلس أمام جدلية جديدة: هل يستطيعون حماية أنفسهم؟ وكان الكثيرون منهم مع تضخم الوجود الغريب الطارئ على المنطقة يفضّل البحث عن مكان آمن، فكان من نتائج الحرب تقهقر العلويين من باب التبانة وشوارع طرابلس المحيطة، إلى منطقة استحدثت كانت تعرف ببعل محسن، وكان لسير المعارك التي ضربت طرابلس وموجة التهجير فظائع أجبرت الكثيرين من أبناء المدينة، من مختلف الطوائف، على مغادرتها واللجوء إلى مناطق أكثر أمناً أو إلى مناطق ذات لون واحد بالنسبة إلى من لا تسمح له إمكاناته المالية بأن ينتقل بعيداً، فنشأ يومها ما عرف تاريخياً بمحور جبل محسن / التبانة.
مع الوقت، ومع اتخاذ الحرب منحى أكثر دموية وشراسة أصبح العلوي يشعر بوطأة الطائفية التي لم يكن يشعر بها من قبل.
كان نتيجة لاتفاق الطائف، أن أقر مقعدان نيابيان للطائفة، تحقيقاً لمطلب قديم منذ ما قبل جمهورية الاستقلال الأولى.
ونتيجة لإقرار الحقوق النيابية في جمهورية الطوائف استحق العلويون بموجب المادة 95 من الدستور حقوقهم أسوة بباقي الطوائف من موظفين في الفئة الأولى: سفير ومديرون عامّون ومدير فرع في الجامعة وعضو في مركز البحوث.
مع تفاقم التبرم، ورفض حالة الغيتو المفروضة على أبناء الطائفة، اندمج الشباب العلوي المثقف بالحركات النهضوية مع مواطنيهم في نسيج اجتماعي وطني، وخرقوا هذا الواقع المحتقن، عبر اتصالاتهم بالفعاليات السياسية في لبنان وبرئيس الوزراء (الشهيد) رفيق الحريري، ونجحوا في تحقيق ذلك.
ومن ثم برزت جمعيات كثيرة ضمن الطائفة بهدف الارتقاء من الواقع الذي فرضته الحرب إلى مستوى مقبول فبرز رجل الأعمال أحمد حبوس الذي حلّ محل النائب الأسبق علي عيد.

■ العلويّون والوجود السوري

كان للوجود العسكري السوري في لبنان أسبابه الاستراتيجية والعسكرية والأمنية، كما كان له آثاره الناتجة من احتكاك العسكر بالمدنيين (وخاصة السياسيين منهم)، وهذه آفة إذا ما أصابت أي جيش في العالم أعطبته مهما كان هذا الجيش انضباطياً.

ولعل الجيش السوري في لبنان كان في ممارساته أقل ارتداداً سلبياً من كثير من الجيوش التي أصيبت بهذه الآفة، ولم يسلم من تداعيات هذا الوجود لا المجتمع اللبناني ولا الجيش السوري.

غير أن الخصوصية هنا كانت في تعامل باقي الطوائف مع العلويين، فكان يفترض الآخر أن العلوي اللبناني يتمتع برعاية خاصة من العلوي السوري. والجدير بالذكر أن العلوي السوري الذي لم يمر بمعمودية المذهبية التي مر بها العلوي اللبناني، ما زال محافظاً على علمانيته ونظرته الشاملة للإسلام كما كانت في بدايات القرن العشرين، فكان لا يهتم إذا ما جاءه علوي لبناني، اللهم إلا إذا ربطته به صلة قرابة، غير أن الحوار الذي كان يدور كان حوار طرشان، فلم يكن العلوي السوري يفهم المصطلحات الطائفية والاصطفاف الطائفي بالحدة التي يتّسم بها الوضع في لبنان. وعندما فهمها، أمعن في إنكار انتمائه الطائفي بل أصبح يرفض أن يمدّ يد العون للعلوي اللبناني لئلا يشعر بينه وبين نفسه بخيانة معتقداته الأساسية من علمانية ونبذ التعصب.

وهنا مرّة أخرى وقع العلوي اللبناني بين مطرقة طائفية أبناء وطنه، وسندان علمانية أبناء طائفته السوريين، فلم يكن له لا في العير و لا في النفير. فرض هذا الواقع نوعاً جديداً من الغربة على العلويين في لبنان فكان أحدهم يشعر بالتهميش، ولا يعنيه الصراع الذي يجريه أبناء طائفته على فتات المراكز التي أسندت إليهم، وأدرك أن النواب والمديرين والسفير هم غرباء عن همومه ومشاكله اليومية، فكان الناخب العلوي يسجل أدنى مستوى مشاركة في الانتخابات بين كل الطوائف، نسبة لم تتجاوز يوماً العشرين في المئة، مما يعني مقاطعة عامة على مقاييس مقاطعة 1992.

■ الصدمة

استمر الواقع على حاله، حتى 14/2/2005، حيث استفاق العلوي اللبناني على واقع جديد، فهو المتهم، وهو المستفيد من الوجود السوري... وراحت أبواق وسائل التحريض في الأحياء تنشط، وتنزع عن العلوي هويته، انتماءه إلى طرابلس وخُلِعَت على جبل محسن رتبة المربع الأمني. أما السيدة الأولى السابقة . التي

عرفت تعاطفاً لا نظير له بين العلويين. فأغدقت ونجلها على العلويين رتباً أمنية، فجميعهم استخبارات سورية، وبالتالي جميعهم...

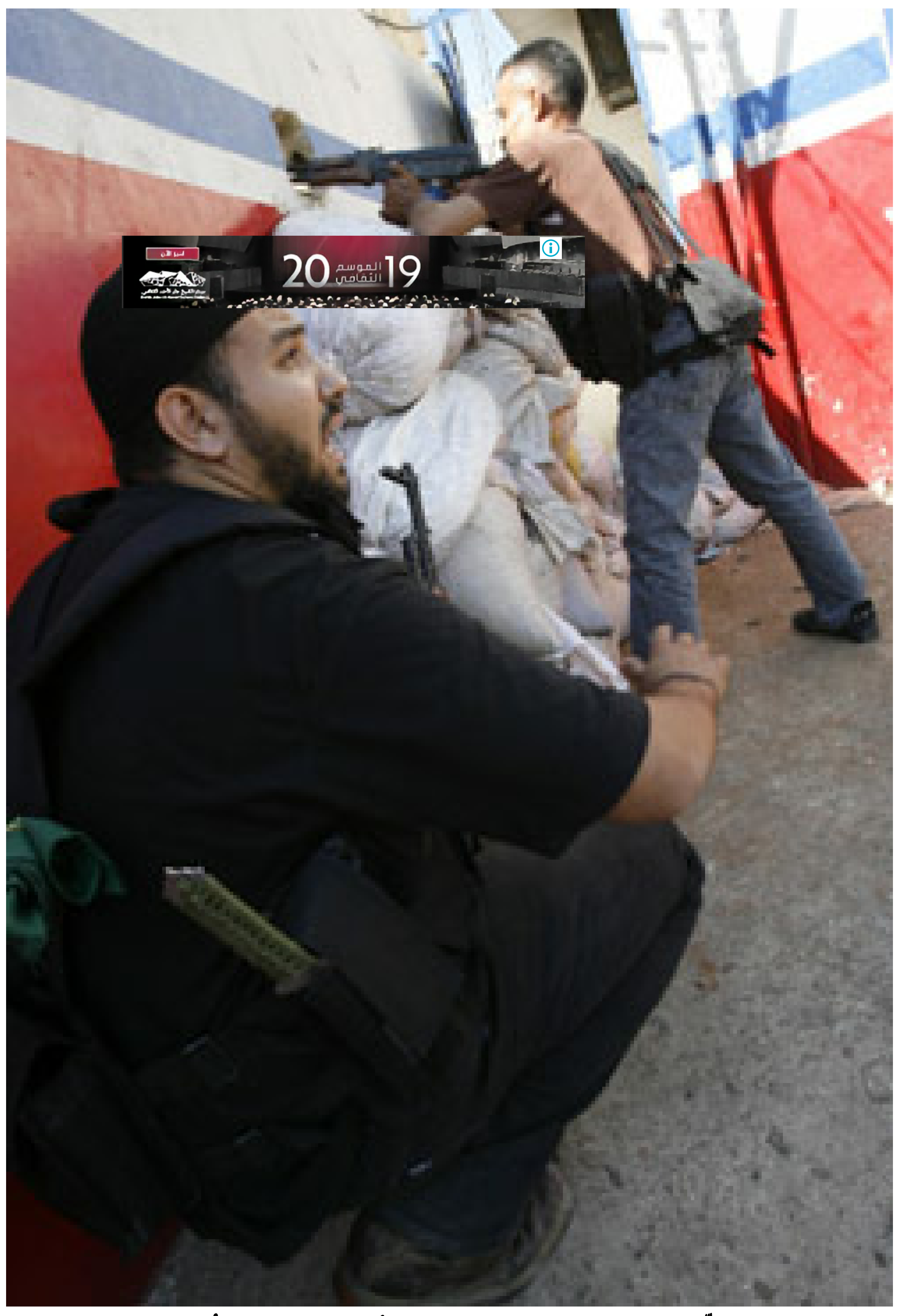
أمام كل هذا الضجيج، أدرك العلوي العادي أنه مطلوب منه أن يدفع فاتورة ما استفاد به المحرضون أنفسهم من الوجود السوري في لبنان، كل ذلك وما من معين ولا نصير، إلا جاره بالفقر وشريكه في الهم في التبانة.

كل هذه التطورات لم تكن بالحسبان، فلم يتوقع أحد أن يدفع المحروم ما تمتع به المترف.

*محامٍ وأستاذ جامعي



مسلّحان من باب التبّانة خلال اشتباكات الأمس (رمزي حيدر. أ ف ب)



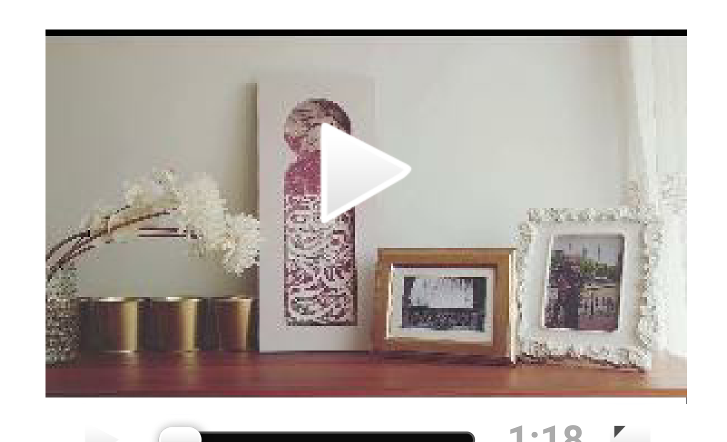
مسلّحان من باب التبّانة خلال اشتباكات الأمس (رمزي حيدر. أ ف ب)

الأخبار

إني أتهم: السكوت عن اضطهاد العلويّين في لبنان

| السبت 30 آذار
رأي | أسعد أبو خليل 2013

إني أتهم. يتعرّض العلويّون في لبنان لحملة اضطهاد فظيعة لم تصل إلى مرحلة الإبادة. ليس بعد. لكن أصوات المطالبة بتكفير العلويّين وإبادتهم باتت ترتفع من عناصر ليبرالية وسلفية في لبنان وسوريا على حدّ سواء. والذي هدّد العلويين في سوريا بالفرم يُحسب على الجناح الليبرالي في فريق 14 آذار السوري. لكن لو تركنا الشأن السوري جانباً، فيمكن الحديث عن وضع العلويّين في لبنان بصرف النظر عن تطوّرات الأوضاع في سوريا وبصرف النظر عن ضخّ الكراهية من مصانع الوهابية.



لبنان أصرّ منذ إنشائه ككيان يخدم المُستعمر على تشكيل تراتبية عنصرية من هرمية الكراهية التي تنبع من عقيدة التسلّط الطائفي الذي أرادته البطريركيّة المارونية (المتُحالفة فعلاً مع الصهيونية والتي وقّعت معها اتفاقية سريّة عام 1946، والتي لم نعلم بها إلا بعد كشف الوثائق في الأرشيف الصهيوني في الثمانينيات من القرن الماضي). وعليه، فإن الموارنة هم الأرفع مرتبة وذلك نتيجة (وسبب) بنيان الطائفيّة الذي فرضه المُستعمر مع حلفائه على الشعب اللبناني منذ بدء الجمهورية. لكن فرض (لا) ديمقراطيّة قائمة. مثلها مثل الصهيونيّة. على تفوق عنصر على عنصر آخر (أو على عناصر أخرى) يؤدّي حتماً إلى تأسيس التمييز والاضطهاد والقمع الطائفي والطبقي. وضخ النظام الطائفي هذا التراتبية الطائفية

(النوعيّة، كما وصفها بصراحة بيار الجميل الحفيد وكما عبّر عنها جبران تويني الحفيد) في جسم المجتمع والثقافة في لبنان. وعليه، كان الغجر والسود والأكراد والعلويّون في أسفل السلّم التراتبي (وكان الشيعة حتى اندلاع الحرب الأهليّة في أسفل السلّم أيضاً). وكلما تدنّت مرتبة الطائفة أو الفئة في هذه الهرميّة اللبنانيّة، زاد إسهامها في تقديم الخادمات للمنازل. والشيعة والعلويّون والأكراد والفلسطينيّون شكّلوا معظم عائلات خادمات المنازل في سنوات ما قبل الحرب الأهليّة. لا يذكر أحد مثلاً أنه وقع على خادمة مارونيّة يوماً ما (أذكر في مؤتمر في أوتاوا، كندا، في التسعينيات من القرن الماضي، أن سمير خلف، بعدما عبّر عن موقف اعتبره الحضور طائفيّاً بحق الشيعة في لبنان، دافع عن نفسه بالقول: إنه لا يكنّ إلا كلّ المودّة للشيعة لأن خادمة منزل عائلته كانت شيعيّة. أذكر أن زميلي .وأستاذي في جامعة جورجتاون، مايكل هدسون . قال لي بعدها: لو أنه تكلّم عن السود في أميركا كما تكلّم هنا عن الشيعة لقام أحدهم برميه من النافذة).

العلويّون مُهانون ثلاث مرّات في لبنان: اجتماعياً وسياسياً ودينياً. العلويّون يحتلّون مرتبة دنيا في السلّم الاجتماعي بسبب التراتبيّة الذي فرضها نظام التسلّط الطائفي في لبنان. وعليه، فإن العلويّين كانوا أدنى مرتبة من الشيعة في عصر كان الشيعة فيه في لبنان مهمّشين، وكان فيه زعماؤهم مجرّد أدوات بيد قيادة (طائفيّة ل) طوائف أخرى. وتدنّي المرتبة الاجتماعيّة يعني أن العلويّين مُهمّشون اجتماعيّاً ويعني أيضاً أنهم مرفوضون في الزواج المُختلط (على ندرته في سنوات ما قبل الحرب) وحتى في الزواج بين المسلمين (ليس هناك إحصاءات دقيقة عن الزواج بين السنّة والشيعة في سنوات ما قبل الحرب، لكن هذا النوع من الزواج كان نادراً خصوصاً قبل نزوح شيعة من البقاع والجنوب إلى العاصمة. (والنفور الاجتماعي من العلويّين يفسّر ارتفاع نسبة الزواج داخل الطائفة، وإن كان السبب يختلف عن الدروز لأنّ تلك الطائفة أغلقت باب التحوّل إليها في القرن الحادي عشر). لكن فورة الطائفيّة المذهبيّة التي صدّرها آل سعود إلى لبنان في العقد الماضي، والتي تلقّفها آل الحريري بانصياع، أثبتت أن نعرة احتقار الشيعة (اجتماعياً ودينياً) لا تزال حيّة داخل الوسط السنّي في لبنان. ولا يحتاج التوتّر المذهبي إلا إلى عود الكبريت فقط، على قول يوسف وهبي الشنيع عن «الشرف». (على الأقلّ، كان هيغل صريحاً في «فلسفة الحق» عندما ربط بين مفهوم «الشرف» والموقع الدوني للمرأة، إذ إنه رأى أن الرجل يمكنه أن يتجلّى أخلاقيّاً خارج العائلة بينما ترتبط «خسارة» الشرف بـ«تسليم» الجسد . راجع الإضافة في القسم الثالث من الكتاب المُتعلّق بالعائلة). وكيف يمكن الزواج من العلويّين والعلويّات وقد اتفق علماء المسلمين على أنه لا تجوز مناكحتهم؟

وعلى عكس المُسلم (وكان على الشيعة أن ينضووا بخجل قبل سنوات الحرب في بوتقة «الإسلام» بصورة عامّة خشية الإحراج أو حتى الاضطهاد، ولهذا كان التعبير السياسي للإسلام ينعكس في قيادة سنيّة

لشتّى الطوائف الإسلاميّة، المذكورة منها والمضمرة)، فإن العلوي كان في منزلة بين المنزلتيْن: لا هو (أو هي) من فئة الأقليّات المسيحيّة على أنواعها والتي لحظها القانون العام والانتخابي، ولا هو (أو هي) في منزلة المسلمين الممثّلين في المجلس النيابي. ببساطة، كان العلويّون في لبنان طائفة مُغيّبة وممنوعة من تبوّء مناصب في الدولة اللبنانيّة، وكان محرّماً عليهم حتى التقدّم للدخول إلى الكليّة الحربيّة (كان العلويّون أو بعضهم يقومون بتغيير دينهم للتقدّم إلى بعض وظائف الدولة). وفي حسابات الطوائف المحسوبة بـ«بيض النمل» على ما كان لينين يقول، لم يكن لا السنّة ولا الشيعة مستعدّين للتضحية بما كانت تجود به عليهم قيادة الطائفة المتنفّذة.

لكن الحظر الديني كان ولا يزال قاسياً. فإن تكفير العلويّين واقع تاريخي، ولا ينحصر بتكفير السنّة لهم. فمن منظار الشيعة الإثني عشريّة، فإن العلويّين ينتمون إلى فرق غلاة الشيعة الذين وقعوا في الضلال وبلغوا في شططهم الكفر. والعلويّون أقاموا في لبنان قروناً طويلة، وهم ليسوا من الطارئين عليه كما حاولت محطة «الجزيرة» (الوقحة في تقيّؤ الكراهية الطائفيّة. المذهبيّة هذه الأيام) في تقرير عنهم في شهور الأزمة السورية. هاكم (وهاكنّ) الرحّالة ابن جبير يتحدّث عن العلويّين عند مروره في بلادنا أواخر القرن الثاني عشر (ميلادي): «وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيّين بها. وقد عمّروا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتّى: منهم الرافضة، وهم السبّابون، ومنهم الإمامية والزيديّة، وهم يقولون بالتفضيل خاصّة، ومنهم الإسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فإنهم يزعمون الإلهية لعلي، رضي الله عنه، ومنهم الغُرابيّة، وهم يقولون: إن عليّاً، رضي الله عنه، كان أشبه بالنبي، صلّى الله عليه وسلّم، من الغراب بالغراب». (ص. 252 من طبعة دار صادر).

ومن دون الخلط بين الموضوع بين أيدينا وبين الصراع في سوريا، فإن الصراع هذا قد أجج الحقد المذهبي (في سوريا وفي لبنان وفي كل أرجاء العالم العربي وخصوصاً أن الوهابيّة. العقيدة الرسميّة في قطر والسعوديّة. تكفّر الشيعة فما بالك بالنصيريّة) ضد كل العلويّين. وفتوى ابن تيميّة الشهيرة باتت نبراساً دينياً لكل من يريد تسويغ الكراهيّة أو القتل ضد كل العلويّين. إبن تيميّة لم يوارب في فتواه، فهو يقول: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم...». وقد تعرّض العلويّون إلى حملات اضطهاد على مرّ القرون بما فيه العهد العثماني.

لكن الحديث عن السكوت اللبناني الشامل، والذي يعمّ كلا الفريقيْن في لبنان، يتعلّق أيضاً بالعداء الديني العقيدي. والتكفير السنّي للعلويّين بات مُعمّماً في كل وسائل إعلام النفط والغاز، لكن العداء الشيعي الإمامي للعلويّين. من زاوية العقيدة. يحتاج إلى بعض الشرح للمساعدة في فهم سبب هذا

السكوت العام والمدوّي في لبنان عن قمع العلويّين واضطهادهم. بادئ ذي بدء، الطائفة العلويّة ليست جديدة أبداً في التاريخ الإسلامي العام وهي تتحدّر من فرق غلاة الشيعة التي تعود إلى التاريخ المُبكّر للإسلام. وكانت الشيعة الإماميّة تعتبر مُبكّراً (القرن العاشر والحادي عشر) أن النصيريين هم كفّار. ويقول زميل خبير في التاريخ الشيعي (لا يريد الإفصاح عن إسمه) إنّ الصمت وعدم التواصل شاب العلاقة بين الشيعة الإثني عشريّة وما اتفق على تسميته لاحقاً بالعلويّين. واستمرّ عدم التواصل بين الفريقيْن (والحكم الأخلاقي. الديني المتُبادل، أي أن الشيعة الإماميّة كفّرت العلويّين فيما اعتبر العلويّون أنهم هم يمثّلون الشيعة الحقّة وأن الشيعة الإماميّة تأثّروا بالفكر السنيّ وقلّلوا من شيعيّتهم أو أنهم ذهبوا بعيداً في «تقديس» الحسين) لقرون عديدة حتى أواخر القرن التاسع عشر. وبدأ الاكتشاف الشيعي أو التواصل مع العلويّين عبر علماء النجف الذين أخذوا يتواصلون مع تلاميذ علويّين بدأوا بالتوافد إلى مدارس النجف. وبدأت اللقاءات بين رجال الدين العلويّين (من أمثال سليمان الأحمد) ورجال الدين الشيعة مما أدّى إلى بروز نزعة شيعيّة لـ«تصحيح» مفاهيم العلويّين. وقد لعب العالم اللبناني حبيب آل إبراهيم («المهاجر العاملي» المولود في حناواي من قضاء صور عام 1886) دوراً في هذا التواصل الجديد لكن الخلاف العقائدي لم يخفت أو يَزل.

وبعد إنشاء الحكم الإسلامي في إيران، بدأ العلماء الشيعة بالتوافد إلى المناطق العلويّة لنشر المبادئ والتعاليم الإثني عشريّة بينهم. وبالمفهوم العقائدي، فإن العلويّين هم شيعة «مضلّلون» بسبب عزلتهم والقمع الذي تعرّضوا له (وكأن العلويّة فكرة متأخرة). طبعاً، لم يحبّذ علماء العلويّين هذه الفكرة الفوقية عن ضلالهم المفترض وخصوصاً أنهم يعتبرون شيعيّتهم صافية غير متأثّرة بالفكر السنّي. لكن الجدال النظري الفقهي لم يكن سهلاً ولا سيما أن العلويّين، مثل سائر الفرق الباطنيّة، لا يعمّمون فكرهم ويفرّقون حفاظاً على السريّة بين العامّة والخاصة من حيث الاطّلاع على مبادئ الفكر. لكن من يجادل في رغبة بعض الطوائف في «الاستتار بالمألوف»؟

لكن دعوة العلويّين إلى الانضمام للعباءة الشيعية الإثني عشريّة حصلت بمبادرة سياسيّة من موسى الصدر، الذي كان من أوثق حلفاء النظام السوري في التاريخ المعاصر (ينسى ذلك متحذلقو الليبراليّة في 14 آذار). لكن الخلط بين العلويّين والشيعة الإماميّة ليس سهلاً لأنه كان على موسى الصدر تجاهل أمور العقيدة (تأليه علي) وأمور الممارسة (ترك أركان الصوم والصلاة) بالإضافة إلى مفاهيم أخرى (استنساخ الأرواح). طبعاً، يشوب الإعلان العلوي ملامح من التقيّة لكن من القمع التشكيك بما تعلنه فرقة ما في الدين لأن في ذلك الحكم رؤية بمنظار فرقة أخرى سائدة. لكن موسى الصدر ساهم في الترويج لتقبّل العلويّين بين الشيعة رغم الخلافات التي لم تُحلّ، إلا سياسيّاً وبيانيّاً.

ولقد أضرّ العلويّين في لبنان هذا الربط الاعتباطي بينهم، كطائفة وكأفراد، وبين النظام السوري خصوصاً

في سنوات سيطرته في لبنان. والنظام السوري لم يعبأ بالعلويّين ولم يتحسّن وضعهم في تلك السنوات. والتحسّن الطفيف في وضعهم تمّ بشق النفس. صحيح أن اتفاق الطائف وعد للمرّة الأولى بتمثيلهم في المجلس النيابي ومؤسّسات الدولة، لكن القانون الخاص بهم لم يمرّ في المجلس النيابي إلا عام 1995. وليس هناك من يرى أن قادة الطوائف المتحالفة مع النظام السوري (من أمثال نبيه برّي ووليد جنبلاط ورفيق الحريري) استفادوا من النظام السوري بدرجة أقل مما استفاد منه قادة العلويّين في لبنان. كان الحضور السياسي للطائفة العلويّة في سنوات سيطرة النظام السوري في لبنان ضئيلاً بالرغم من نفوذ ميليشيا علي عيد، الذي استفاد من علاقته بالنظام السوري دون أن يكترث لتحسين وضع الطائفة في النظام الطائفي. كما أن ممارسات ميليشياه كانت بسوء ميليشيا جنبلاط وبرّي في الحرب الأهلية. لكن لم يكن كل العلويّين مرتبطين بالنظام السوري، وقد انضوى كثير منهم في صفوف المنظمات اليساريّة التي صارعت النظام السوري في عام 1976 وما بعده.

إني أتهم. يتعرّض العلويّون في لبنان بصمت لحملة لا تختلف عمّا تعرّض له اليهود في حقبة الصعود النازي في ألمانيا. لقد شهدت طرابلس أكثر من مرّة على امتداد العام الماضي ما اصطلح على تسميته في التاريخ الألماني «ليلة البلّور» المكسور، حيث تعرّضت محال اليهود للتكسير والحرق وحيث تعرّض افراد يهود للاعتداء. لقد تعرّضت كل متاجر العلويّين في طرابلس للحرق والتلف أو السرقة وهُجّر أصحابها بالقوّة منها. هي «ليالي البلّور» المكسور: أليس هذا ما تعرّض له العلويّون في مدينة طرابلس بالرغم من صمت المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان المحليّة التي لا تفتح فاها دون ورود إذن من الرجل الأبيض في أوروبا؟ لقد قام بعض أهل طرابلس بالتهجير العنفي لعلويّين قطنوا بينهم لعقود وقرون ولم يصدر صوت مُعترض من طرابلس كلّها. والطريف أن أبواق آل سعود وآل الحريري وآل ثاني من الليبراليين في مواقع «ناو حريري» و«ناو كبّارة» و«ناو مدن الملح» يعتبرون أن معاداة السلفيّة في لبنان تنمّ عن تعصّب (أو حتى رهاب) ضدّ الإسلام والسنّة. وعليه، يجب، بمقياس هؤلاء، محاباة السلفيّين حتى في كراهيتهم وفي نظرتهم الدونيّة للمرأة ولكل «الغير». هل تفوّه الليبراليّون والليبراليّات بكلمة ضد اضطهاد العلويّين والدعوات العلنيّة لقتلهم؟ لو تعرّض واحد من أبواق عائلة الحريري في لبنان لشتيمة على فايسبوك لقامت الدنيا ولم تقعد، ولأصدرت منظمة «إعلاميّون ضد العنف». إذا كان موجّهاً ضد العدوّ الإسرائيلي وأعوانه. بيانات تنديد، وتقوم الأمانة العامّة لـ14 آذار (وجلساته مفتوحة منذ سنوات) بإصدار فرمان استنكار. لكن ماذا عن تداول فتاوى هدر دم العلويّين في لبنان ونشرها في مناشير؟

أكثر من ذلك، لو أن الحملة على العلويّين في لبنان موجّهة ضد من تبقّى من الجالية اليهوديّة في لبنان (والتي تعرّضت لاعتداءات مهينة ومشينة في الثمانينيات وأصابت أيضاً من كان يُسمّى «طبيب الفقراء» بينهم)، لأصدر الليبراليّون في لبنان والعالم العربي بيانات التنديد ولطالبوا حلف شمالي الأطلسي بالإغارة

على متهمين بالفعل فوراً. وفريق الممانعة الذي يخاف الفتنة (وكأنه نجح في تفاديها بخططه الغبيّة الواحدة تلو الأخرى)، بسبب تركيبة النظام السوري وحزب الله الطائفيّة، صامت هو أيضاً. إني أتهم كل الفرقاء في لبنان والمجتمع المدني المرتبط إما بالنفط والغاز أو بمعايير المجموعة الأوروبيّة بالصمت عن حملة عنف يتعرّض لها العلويّون في لبنان. كيف يمكن السكوت عن القصف العشوائي والقنص الذي يتعرّض له جبل محسن بمجرّد أن يشعر ليبرالي أو سلفي في طرابلس بالحنق؟ وإلى متى تُبثّ التقارير عن «اشتباكات» في طرابلس من جهة واحدة فقط، وكأن جبل محسن هو المعتدي، مع أن توقيت بدء الاشتباكات في طرابلس يتزامن دائماً وأبداً مع غضب سلفيّي طرابلس لسبب من الأسباب. وأكاذيب سلفيّي طرابلس وحريريّيه تمرّ في الإعلام مثل أكاذيب رئيس بلديّة عرسال عن صيد الأرانب ليلاً ونهاراً في الجرود على الحدود السوريّة، وهي مثل أكاذيب عقاب صقر عن تهريب الحليب إلى سوريا ومثل أكاذيب سلفيّي طرابلس عن المجموعة المقاتلة في تل كلخ (أنهم تسرّبوا في جنح الظلام بهدف الإسعاف). يريد السلفيّون ومن يروّج لهم في وسائل إعلام لبنان أن نصدّق أن أهل جبل محسن يختارون لحظات يكون فيها الغضب العارم معتمراً في صدور أهل باب التبّانة، مثل اغتيال وسام الحسن أو مقتل الشيخ عبد الواحد، كي يبدأوا هكذا فجأة بقصف باب التبّانة. يريد السلفيّون في لبنان منا أن نصدّق أن الأقلية العلوية المُحاصرة في جبل محسن تصرّ باستمرار على استفزاز باب التبّانة كي تزيد من عزلتها ومن حصارها.

إني أتهم كل وسائل الإعلام في لبنان بالتورّط في دعاية عنصريّة حاقدة ضد العلويّين في لبنان، الذين. خلافاً لليهود في لبنان. لا يحظون بأي تغطية سياسيّة من أحد (لأسباب بانت أعلاه، بينما كان اليهود يحظون بتغطية ورعاية سياسيّة من حزب الكتائب الذي كان يحصل على معظم أصوات اليهود. راجع «الانتخابات النيابيّة: 1972، بالأرقام والنسب المئويّة»). إن الثقافة الشعبيّة والسياسيّة اللبنانيّة تغطّي عمليّة قمع العلويّين واضطهادهم، ومنظمات حقوق الإنسان. خصوصاً مثل فرع بيروت من «هيومن رايتس وتش». لا ترفع صوتاً أو همساً للتنديد، فيما تصدر المنظمة المذكورة بيانات شبه يوميّة ضد النظام السوري (ويستحق هذا النظام كل التنديد)، مما يشير إلى تناغم بينها وبين مكتب الحريري الإعلامي في بيروت. هل سننتظر أن تتطوّر ممارسة تكفير العلويّين إلى مرتبة حرب إبادة ضدهم في لبنان (وفي سوريا في وقت لاحق إذا وصل سلفيّو قطر والسعوديّة إلى السلطة)؟

إن القصف والقنص المُستمرّ، والمزاجي تبعاً لتقلّبات أهواء سلفيّي باب التبّانة وحريريّيه، يستحق الإدانة، وخصوصاً أن الدولة اللبنانيّة لم تعن يوماً بحقوق العلويّين. لا كطائفة من الطوائف ولا كمواطنين ومواطنات في بلد الطوائف. وأسباب صمت الجميع في لبنان، ولا سيما الذين واللواتي يتشدّقون صبحاً ومساء بشعارات فارغة عن الحريّة وعن حقوق الأقليّات، مُتعلّقة بفساد الليبرالية اللبنانية (والعربية).

هناك من يخاف رفع الصوت للدفاع عن حق العلويّين خوفاً من الارتباط بالنظام السوري الذي تسيطر عليه أسرة علوية. إن التمييز ضد العلويّين في لبنان وتغييب حقوقهم بدأ قبل وصول حكم الأسد إلى دمشق وقبل اندلاع الصراع في سوريا. هذا شأن يتحمّل مسؤوليته لبنان، حكومات ومؤسّسات ومجتمعاً تمرّس في العنصريّة والطائفيّة.

إني أتهم. إن مسخ الوطن يرتكب جريمة اضطهاد عنيفة ضد طائفة بحالها والصمت سائد بين المواطنين والمواطنات. العلويّون: بشرٌ هم، في القانون والعرف اللبناني؟

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت:

angryarab.blogspot.com)



